

قسوة القلوب، أعراضها وأسبابها وعلاجها

عناصر الخطبة:
منزلة القلب
خطورة قسوته
الأعراض
الأسباب
العلاج

التفصيل

إن الناظر والمتأمل في أحوالنا وفي تعاملنا مع الله، وتعاملنا مع الآخرين يجد قصوراً بيناً وخللاً ظاهراً، فما لنا لا نشعر بالخشوع في صلاتنا وعبادتنا، ولا نتأثر عند تلاوة القرآن، ولا يتورع البعض عن الشبهات في المعاملات، ونرى الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين، وظهور الجفاء وسوء الظن بين المسلمين، وانتشار القطيعة بين الأرحام. . . . ، فالأمراض كثيرة وسببها واحد؟ إنها القلوب!

منزلة القلب:

- **القلب ملك**، عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنه)، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، يَقُولُ: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) (١).
قال النووي (رحمته الله): ففي هذا الحديث أن صلاح الحديث أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب وفيه التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد. (٢)
قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، فمن أعطي قلباً سليماً من هذه الأمراض فليحمد الله تعالى، ومن وجد في قلبه مرضاً من هذه الأمراض وجب عليه أن يعالجها حتى يزول، فإن لم يعالجها أثم. (٣)

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)

(٢) شرح النووي على مسلم (٢٩ / ١١)

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١ / ١٣١)

- القلب محل نظر الله جل وعلا ويكون العطاء من الله تعالى على حسب ما في القلب .
قال تعالى {إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}
[الأنفال: ٧٠]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)). (٤)

قال الحسن البصري رضي الله عنه لرجل: ذاب قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم: يعني أن مراده منهم ومطلوبه صلاح قلوبهم. (٥)

- استقامة الجوارح متوقفة على استقامة القلب .
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ...)). (٦)

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشَقَّى بِخِدْمَتِهِ... أَتَطْلُبُ الرِّيحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانٌ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا... فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانٌ.

- ومع ما له من مكانة فهو سريع التقلب

ما سمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل
عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما سمي القلب من تقلبه إنما مثل القلب كريمة بأرض فلاة يقلبها الرياح ظهرًا ليطن)). (٧)

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، قال: ما آمن على أحد بعد الذي سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا)). (٨)

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤)

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١١)

(٦) رواه أحمد (٣/ ١٩٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٥٦)

(٧) رواه أحمد (٤/ ٤٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٦٦)

(٨) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٢٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩١٥)

والله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب ومصرفها كما جاء عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه:
 أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: ((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ
 وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى
 طَاعَتِكَ)). (٩)

خطورة قسوة القلب، وأي مُصِيبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ دَلِيلٌ عَلَى غَضَبِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ،
 فَإِنَّ الَّذِي مَاتَ قَلْبُهُ لَا يَخْشَعُ، وَلَا فِيهِ الْمَوَاعِظُ قَطُّ تَنْجِعُ، وَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِ آيَاتِ رَبِّهِ أَصْرَ مُسْتَكْبِرٍ كَأَنَّ
 لَمْ يَسْمَعْ، فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ، وَخَطْبُ عَظِيمٍ جَسِيمٍ، حِينَ قَسَا قَلْبُهُ وَرَانَ عَلَيْهِ ذَنْبُهُ. (١٠)
 قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رضي الله عنه: مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ عَلَيْهِ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبٍ. (١١)
 وَقَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: يَا عَجَباً مِنَ النَّاسِ يَبْكُونَ عَلَى مَنْ مَاتَ جَسَدُهُ وَلَا يَبْكُونَ عَلَى مَنْ مَاتَ قَلْبُهُ
 وَهُوَ أَشَدُّ. (١٢)

قَالَ حُدَيْفَةُ الْمُرَعِي رضي الله عنه: مَا أُصِيبَ أَحَدٌ بِمُصِيبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسَاوَةِ قَلْبِهِ. (١٣)
 قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رضي الله عنه: وَكُلُّ آفَةٍ تَدْخُلُ عَلَى الْعَبْدِ فَسَبَبُهَا ضِيَاعُ الْوَقْتِ وَفَسَادُ الْقَلْبِ. (١٤)
أعراض قسوة القلب:
 فَإِنَّ لِقَسْوَةِ الْقَلْبِ أَعْرَاضاً وَمَظَاهِرَ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَهِيَ تَتَفَاوَتُ مِنْ حَيْثُ خَطُورَتِهَا وَأَثَرِهَا عَلَى
 صَاحِبِهَا، وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ:

(٩) رواه مسلم (٢٦٥٤)

(١٠) نشر طي التعريف (ص: ٤٦)

(١١) العقوبات لابن أبي الدنيا (ص: ٦٧)

(١٢) تزيكية النفوس (ص: ٣٥)

(١٣) حلية الأولياء (٨/ ٢٦٩)

(١٤) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص: ٥)

- التكاثر عن الطاعات وأعمال الخير:

فالصلاة يؤديها مجرد حركات لا خشوع فيها، بل يضيق بها ذرعا كأنه يحمل عبئا ينوء به ظهره ويريد التخلص منه سريعا. وقد وصف الله المنافقين فقال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴾. [التوبة: ٥٤] وقال: ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾. [النساء: ١٤٢]

- جمود العين عن البكاء من خشية الله:

فإن من علامات قسوة القلب ومرضه جمود العين وجفاف دمعها قال ابن القيم رحمه الله: متى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي. (١٥)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيد من القلب الذي لا يخشع، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا)) . (١٦)

عَنْ أَبِي صَالِحِ السَّمَانِ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ الْيَمَنِ فِي زَمَانِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ جَعَلُوا يَبْكُونَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ. (١٧)

قال يحيى بن مُعَاذِ الرَّازِيِّ رحمه الله: مَا جَفَّتِ الدَّمُوعُ إِلَّا لِقِسَاوَةِ الْقُلُوبِ، وَمَا قَسَتِ الْقُلُوبُ إِلَّا لِكثْرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ إِلَّا مِنْ كَثْرَةِ الْعُيُوبِ. قلت {الذهبي}: وما كَثُرَتِ الْعُيُوبُ إِلَّا مِنْ الْاِغْتِرَارِ بِعِلَامِ الْعُيُوبِ. (١٨)

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: لَأَنْ أَدْمَعَ دَمْعَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ. (١٩)

(١٥) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٤)

(١٦) رواه مسلم (٢٧٢٢)

(١٧) مصنف ابن أبي شيبة (٥ / ١٤)

(١٨) تاريخ الإسلام (٦ / ٢٣١)

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب. (٢٠)، وكم أضحت عيون بعض المسلمين اليوم جامدة لا تدرف من خشية الله ولا من ذكره، وكم أصبح البكاء من خشيته سبحانه اليوم عزيزاً، الأمر الذي يشير إلى وجود هذا المرض وانتشاره بين المسلمين.

- عدم التأثر بآيات القرآن الكريم والمواعظ:

فهو يسمع آيات الوعد والوعيد فلا يتأثر ولا يخشع قلبه ولا يجت، كما أنه يغفل عن قراءة القرآن، وعن سماعه ويجد ثقلاً وانصرافاً عنه، وقد توعد الله أصحاب هذه القلوب وعيداً شديداً فقال {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الزمر: ٢٢]

وقد حذر الله تعالى المؤمنين أن يشابهوا أهل الكتاب وبنو إسرائيل في قسوة القلب وشدته فقال تعالى: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } {الحديد ١٦}

- الركون للدنيا واللهث خلف شهواتها:

فتصبح الدنيا همه وشغله الشاغل، وتكون مصالحه الدنيوية ميزاناً في حبه وبغضه وعلاقاته مع الناس.

قال ابن القيم رضي الله عنه: ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فالعلم أنه قد خسف به. (٢١)

- من علامات مرض القلب وقسوته اتباع المتشابه:

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } {آل عمران: ٧، ٨}

(١٩) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٢٨)

(٢٠) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٤)

(٢١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٤)

- من علامات مرض القلب وقسوته نسيان الدعاء والتعلق بالأسباب المادية
قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا
إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٢، ٤٣]

- من علامات مرض القلب وقسوته مولاة الكافرين
قال تعالى { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ
أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة: ٥٢]
أسباب قسوة القلب:

تلك أعراض القلب القاسية أما أسبابها فكثيرة أيضا ومتعددة وبعضها أكثر خطورة من الآخر،
وتزداد القسوة كلما تعددت الأسباب، ولعل أهم هذه الأسباب هي:

- التعرض لفتن الشبهات وعدم إنكارها:

عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ
كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ
بَيْضَاءٌ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَىٰ أَيْبَضٍ مِّثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ،
وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ)). (٢٢)

- حب الدنيا والركون إليها ونسيان الآخرة: وهذا من أعظم الأسباب التي تقسي القلوب، فإن حب

الدنيا إذا طغى على القلب ضعف إيمانه شيئاً فشيئاً حتى تصبح العبادة ثقيلة مملّة، ويجد لذته وسلواه في
الدنيا وحطامها حتى ينسى الآخرة أو يكاد، ويغفل عن هادم اللذات، ويبدأ عنده طول الأمل، وما
اجتمعت هذه البلايا في شخص إلا أهلكته.

وللدنيا شعبٌ ما مال القلب إلى واحدة منها إلا استهوته لها بعدها، ثم إلى ما بعدها حتى يتعد عن الله
عز وجل، وعندها تسقط مكانته عند الله، ولا يبالي الله في أي وادي من أودية الدنيا هلك والعياذ بالله. إن
هذا العبد نسي ربه أقبل على الدنيا، فعظم ما لا يستحق التعظيم، واستهان بما يستحق الإجلال والتكريم،
فلذلك كانت عاقبته من أسوأ العواقب.

(٢٢) رواه مسلم (١٤٤)

- الغفلة:

وهي داءٌ وبيلٌ، ومرضٌ خطيرٌ إذا استحوذ على القلوب، وتمكن من النفوس، وتمكن من الجوارح والأبدان أدى إلى انغلاق كل أبواب الهداية، وحصول الطبع والختم على القلوب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]

قال ابن القيم رحمه الله: فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه. فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً. وهذا أعظم عقوبات القلب. (٢٣)

قال تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا} [الكهف: ٢٨]

قال ابن القيم رحمه الله: ومن تأمل حال هذا الخلق وجددهم كلهم إلا أقل القليل ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى واتبعوا أهواءهم وصارت أمورهم ومصالحهم {فرطاً} أي فرطوا فيما ينفعهم ويعود بصلاحتهم واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود بضرهم عاجلاً وآجلاً. (٢٤)

وأخبر الله تعالى عن أصحاب الغفلة أنهم أصحاب قلوب قاسية لا ترق ولا تلين، ولا تنتفع بشيء من الموعدة، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ولهم أعين يشاهدون بها ظواهر الأشياء، ولكنهم لا يبصرون بها حقائق الأمور، ولا يميزون بها بين المنافع والمضار، ولهم آذان يسمعون بها الباطل كالكذب والغناء والفحش والغيبة والنميمة، ولا ينتفعون بها في سماع الحق من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فأنى لهؤلاء الفوز والنجاة وتلك حالهم، وأنى لهم الهدى والاستقامة وتلك طريقتهم يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

(٢٣) الوابل الصيب (ص: ٤٠)

(٢٤) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص: ٦)

- مصاحبة أصدقاء السوء، والجلوس في الأجواء الفاسدة:

وهذا السبب من أكثر الأسباب تأثيراً، وذلك لأن الإنسان سريع التأثر بمن حوله، فالشخص الذي يعيش في وسط يعج بالمعاصي والمنكرات، ويجالس أناساً أكثر حديثهم عن المحرمات، ويكثرون المزاح والضحك وسماع الغناء ورؤية المسلسلات الهاجنة، هذا الشخص لا بد أن يتأثر بهؤلاء الجلساء وطبعه يسرق من طبعهم، فيفسد قلبه، ويعتاد على هذه المنكرات

- كثرة الوقوع في المعاصي والمنكرات

بحيث تصبح المعاصي شيئاً مألوفاً، فإن المعصية ولو كانت صغيرة تمهد الطريق لأختها حتى تتابع المعاصي ويهون أمرها، ولا يدرك صاحبها خطرها، وتتسرب واحدة وراء الأخرى إلى قلبه، حتى لا يبالي بها، ولا يقدر على مفارقتها ويطلب ما هو أكثر منها، فيضعف في قلبه تعظيم الله وتعظيم حرماته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ)) {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]. (٢٥)

قال ابن القيم رحمه الله: الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل. (٢٦)

وقال أيضاً: والذنوب للقلب بمنزلة السموم، إن لم تهلكه أضعفته، ولا بُدَّ وَإِذَا ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَقَاوِمَةِ الْأَمْرَاضِ، قَالَ طَيْبُ الْقُلُوبِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رحمه الله: رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ... وَقَدْ يُورِثُ الذَّلَّ إِدْمَانَهَا وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانَهَا. (٢٧)

(٢٥) رواه الترمذي (٣٣٣٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/٣٤٣)

(٢٦) الفوائد لابن القيم (ص: ٤١)

(٢٧) الداء والدواء (ص: ٥٩)

- نسيان الموت وسكراته، والقبر وأهواله:

وعذابه ونعيمه، ووضع الموازين، ونشر الدواوين، والمرور على الصراط، ونسيان النار وما أعد الله فيها لأصحاب القلوب القاسية {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: ١٩]

علاج قسوة القلب:

أيها الإخوة المؤمنون، بعد أن وقفنا على مظاهر هذا الداء وأسبابه، وفحصنا المرض، نقف على سبيل علاجه، والأسباب التي تجعله رقيقاً منكسراً خاشعاً لخالقه عز وجل، يُقبل على الله بعد أن كان معرضاً عنه، ويقف عند حدوده بعد أن كان مجترئاً عليها.

فإن نعمة رقة القلب من أجل النعم وأعظمها، وما من قلب يُجرم هذه النعمة إلا كان صاحبه موعوداً بعذاب الله فقد قال سبحانه

﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وما رق قلب لله وانكسر إلا كان صاحبه سابقاً إلى الخيرات، مشمراً إلى الطاعات، أحرص ما يكون على طاعة الله ومحبته.

ومن الأمور التي تزيل القسوة عن القلب:**- تعلم العلم الشرعي من القرآن والسنة الذي يعين على المعرفة بالله تعالى وتوحيده:**

قال تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] وقال تعالى {وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الحج: ٥٤]

فمن عرف ربه حق المعرفة رق قلبه، ومن جهل حق ربه قسا قلبه، ولا يكون القلب قاسياً إلا إذا كان صاحبه من أجهل العباد بالله عز وجل وبحقه في التوحيد وإخلاص العبادة له عز وجل، وكلما عظم الجهل بالله وبحقوقه كان العبد أكثر جرأة على حدوده ومحارمه، وكلما وجدت الشخص يديم التفكير في ملكوت الله، ويتذكر نعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى، وجدت في قلبه رقة.

- تذكر الموت وما بعده:

من سؤال القبر وظلمته ووحشته وضيقة، وأهوال الموت وسكراته، ومشاهدة أحوال المحتضرين وحضور الجنائز، فإن هذا مما يوقظ النفس من نومها، ويوقفها من رقادها، وينبها من غفلتها، فتعود إلى ربها وترق، ولهذا كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بذكر الموت، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ))، يَعْنِي الْمَوْتَ. (٢٨) وفي لفظ: ((أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ)). (٢٩)

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي سَاعَةً، لَحَشَيْتُ أَنْ يَفْسُدَ عَلَيَّ قَلْبِي. (٣٠)

- زيارة القبور والتفكير في حال أهلها:

وكيف صارت أجسادهم تحت التراب وكيف كانوا يأكلون ويتمتعون ويلبسون ما لذ وطاب فأصبحوا تحت التراب في قبورهم، وتركوا ما ملكوا من أموال وبنين، ويتذكر أنه قريباً سيكون بينهم، وأن مآله هو مآلهم، ومصيره هو مصيرهم، فزيارة القبور عظة وعبرة، وتذكير وتنبية لأهل الغفلة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فَرُورُوهَا، فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا)). (٣١) ومن نظر إلى القبور وإلى أحوال أهلها انكسر قلبه ورق، وذهب ما به من القسوة، وأقبل على ربه إقبال صدق وإخبات.

- قراءة القرآن الكريم وتدبر آياته:

والتفكير في وعده ووعيده وأمر ونهيه، فما قرأ عبد القرآن وكان عند قراءته حاضر القلب مفكراً متدبراً إلا وجدت عينه تدمع، وقلبه يخشع، ونفسه تتوهج إيماناً من أعماقها، وما تلا عبد القرآن حق تلاوته أو استمع إلى آياته إلا وجدته رقيقاً قد خفق قلبه واقشعر جلده من خشية الله ﷻ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﷻ. [الزمر: ٢٣] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقال تعالى في معرض الثناء على أهل العلم الذين يتأثرون عند سماع الذكر { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلاذْقَانِ سُجَّدًا

(٢٨) رواه ابن ماجه (٤٢٥٨) وصححه الألباني في الإرواء (١٤٥ / ٣)

(٢٩) مسند الشهاب القضاعي (١ / ٣٩١)

(٣٠) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٠)

(٣١) رواه الحاكم (١ / ٥٣٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ٨٤١) (وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا) أي لا تقولوا باطلاً.

(١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَحْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا { [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]

وقد كان هذا حال رسول الله ﷺ وأصحابه مع كتاب الله، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ)) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ؟ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: ((إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي))، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}. قَالَ: ((حَسْبُكَ الْآنَ))، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. (٣٢)
قال إبراهيم الخواص رحمه الله: دَوَاءُ الْقَلْبِ حَمْسَةُ أَشْيَاءٍ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَخَلَاءُ الْبَطْنِ وَقِيَامُ اللَّيْلِ وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ وَمَجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ. (٣٣)

قال ابن القيم رحمه الله: ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب. (٣٤)
- الإكثار من ذكر الله والاستغفار:

فإن للقلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى. وقال تعالى {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥]

عَنِ الْأَعْرَبِيِّ بْنِ يَسَارٍ الْمُرِّيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)). (٣٥)

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل. (٣٦)

عن المعل بن زياد أن رجلاً قال للحسن البصري رحمه الله: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلب. قال: أذبه بالذكر. قال ابن القيم معلقاً: وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة، اشتدت به القسوة، فإذا ذكر

(٣٢) رواه البخاري (٥٠٥٠) ومسلم (٨٠٠)

(٣٣) ذم الهوى (ص: ٧٠)

(٣٤) حادي الأرواح (ص: ٦٩)

(٣٥) رواه مسلم (٢٧٠٢)

(٣٦) الوابل الصيب (ص: ٤٠)

الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار. فما أذيت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل. (٣٧)

قال ابن القيم رحمه الله: ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلأؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء. وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، وجلأؤه بشيئين بالاستغفار والذكر. (٣٨)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾
قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال: ٢]

- زيارة العلماء الربانيين الصالحين وصحبتهم ومخالطتهم والقرب منهم:

فهم يأخذون بيدك إن ضعفت، ويذكرونك إذا نسيت، ويرشدونك إذا جهلت، وإن دعوا الله لم ينسوك، قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال: إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْفَضِيلِ جَدَّدَ لِي الْحُزْنَ، وَمَقَّتْ نَفْسِي، ثُمَّ بَكَى. (٣٩)

وقال مالك بن أنس رحمه الله: كلما أجد في قلبي قسوة آتي محمد بن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأتعظ أياماً بنفسي. (٤٠)

- محاسبة النفس:

فإن الإنسان إذا لم يحاسب نفسه ويعاتبها وينظر في عيوبها، ويتهمها بالتقصير لا يمكن أن يدرك حقيقة مرضها، وإذا لم يعرف حقيقة المرض فكيف يتمكن من العلاج؟! لهذا لا بد من تذكير النفس

(٣٧) الوابل الصيب (ص: ٧١)

(٣٨) الوابل الصيب (ص: ٤٠)

(٣٩) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٠٤)

(٤٠) ترتيب المدارك (٢/ ٥٢)

بضعفها وافتقارها إلى خالقها، وإيقاظها من غفلتها، وتعريفها بنعم الله عليها، ومراقبتها ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة حتى يسهل عليه قيادها والتحكم فيها. قال مكحول رحمه الله: " أرقُّ الناس قلوباً أقلهم ذنباً ".

- العطف على الفقراء والمساكين والأرامل والمسح على رأس اليتيم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا شَكَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَاطْعِمِ الْمَسَاكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ)) .^(٤١)

- الدعاء واللجوء إلى الله تعالى

القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء

قال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [الأنعام: ٤٦]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ بَيِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِنْ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)) .^(٤٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا قَالَ: ((يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، بَيِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ)) .^(٤٣)

قال الله تعالى عن الراسخين في العلم { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } [آل عمران: ٨]

والحمد لله رب العالمين

^(٤١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٩٨)

^(٤٢) رواه الترمذي (٢١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٢٣)

^(٤٣) رواه أحمد (٢/ ٤١٨)